بنت يفتاح

مأساة شعرية ذات فصلين

جائزة «الجامعة الادبية» للسنة ١٩٣٥

بقلم

سعيد عقل

ظهرت في مجلة «المشرق»

المطبعة الكاثوليكية . بيروت ، ١٩٣٥

الطبعة الاولى : تموز ١٩٣٥

№ 0209

الى O.A.

الى S.K

الى N.S

الى S.F.

الى س. س.

الى جمال احمد

توطئة

وصلنا الادب العربي ، وهو يجهل « الانواع الادبية » ، حتى الاولية منها كالملحمة . وكان على نهضتنا الحديثة ان تحاول جهدها مجاراة آداب الامم في هذا المضمار .

اترك الملحمة لظرف آخر ، واكتفي الآن بدرس المرسح .

***

اني ، بكثير من الجرأة ، أشيح ناظري عما وسموه عندنا بسِمة المرسح ، فأبدأ بعرضٍ عام ادرس فيه انواع المرسح عند الامم الراقية .

ثلاثة مراسح في الآداب العالمية لم تُحقق : اليوناني ، والشكسبيري ، والمدرسي في القرن السابع عشر .

المدرسي الفرنسي صورة اروع للمرسح اليوناني ، فاترك سوفوكل واوريبيد الى راسين وكورنيل . فيبقى لديّ مرسحان لنوعين مختلفين : الشكسبيري والمدرسي . على ان هذا الاخير نفسه ، منقسم الى نوعين مع راسين ، وكورنيل .

طريقة راسين تقضي بوصف « العارض في اشد حالاته » ، فاذا المأساة عاصفة مهيئة من زمن تنفجر على المرسح فلا يمكنها ، والحالة هذه ، ان تطول او

تجري في اماكن مختلفة، فتتوافر وحدتا الزمان والمكان. وطريقة كورنيل تتابع وصف العارض من نشوئه الى حدّته الى انحلاله . خذ له « السيد » مثلاً ، فترى ان العارض لا يبدأ الا بعد صفعة « الكونت » ، اذ يقف « رودريك » حائرًا : ايترك والده سليب الشرف ، ام يقتل والد « شيمين » ، والد حبيبته ؟ فلو تناول راسين « السيد » هذه ، لبدأ الرواية من هنا . ومن البديهي ان تكون طريقة راسين الطريقة الاكمل لبساطتها ولاكتفائها بأخذ البعض من حالات النفس ترسل عليه النور ، فتبدو النفس وعواطفها بأجلى مظهر. وعليه يكون النوع الراسيني النوع الذي اقصده من المرسح المدرسي.

اما المرسح المنتسب لشكسبير فالثابت ان صاحبه لم يكن متضلعاً من اللاتينية واليونانية فيأخذ بمرسحهما ويرقيه ، كما فعل راسين ، فنشأ مرسحه من نوع الادب الاولي ، اي « الملحمي » . فكما ترى في « الالياذة » مثلاً ، عصور اليونان الاولى ، تتهادى امامك حيّة أخلاقاً وعادات ، هكذا ترى في « روميو وجوليت » وفي « هملت » ، عصرين : ايطاليًا ودانمركيًا ، يخفقان باخلاق هذين البلدين وعاداتهما.

ظلّ البحث قائماً على راسين وشكسبير ، فأيّ النوعين نعتمد في نهضتنا ، وقد ثبت لنا انهما مختلفان ؟

الاول يدرس « عارضاً » واحداً ، ويدرسه بكثير من التعمق بحيث لا يعطيك النفس الواحدة الّا وهي تخفق بين يديك كأنها نفسك . والثاني يصف

لك « عوارض » عدة وجماعة كاملة. واذا حالت وفرة اشخاصه دون التعمق في درس كل نفس، فتعتاض انت بانّ امام عينيك عصراً كاملاً او بشرية باسرها، ولو خافتة الالوان.

الاول — وهو درس — يقتضي له، على قولهم، انشاء وضعي رصين، يسيّره المنطق، أداة الدرس الاولى، فيخلو من المقاطع الغنائيـة او الملحمية. والثـاني — وهو تصوير عصر او بشرية — يستدعي الانشاء الغنائي والملحمي لغة البشرية في كل آن.

لا يجوز لنـا الاخذ باحد هذين النوعين، مهما كان كاملاً، الا اذا وافق اميـال بيئتنا وذوقنا الحديث. فما هي اذواقنا وما هي اميالنا ؟ وهل نستسيغ راسين باجماعه، او شكسبير باجماعه ؟

ان هوغو قد اخفق مرسحه، يوم اراد ان يحذو فيه حذو شكسبير، فهل يعني ذلك انّ المرسح الشكسبيري لا يوافق غير الانكليز ولا يـلائم العصور الحديثة ؟ وانه لا يستند في البقاء الا على « العتق »، كأدبنا العربي الجزيل ؟ وانه لذلك خليق بالاهمال ؟ لا ؛ والتشبيه الذي جئت به بعيدٌ بعد شوقي عن راسين... فانّا لمرسح شكسبير مزايا مرسحية حقًّا تفيدنا نحن الشرقيين على الاخص. فهو نوع أمثل « للفاجعة الشعبية » (mélodrame)، التي نجحت عندنا في « عاصفة في بيت » و « الذبائح » و « العواصف » لانطون يزبك. ومن جهة أخرى ارى ان حالتنا — تلامذة العرب — غير حالة مشاهدي هوغو

في فرنسة. هؤلاء اعتادوا، مع راسين وكورنيل، مرسحاً منطقياً يكاد يخلو من الغنائيات ، فلولا بعض مقاطع من مثل « مونولوج رودريك » و « اغاني استير » ، لرأينا المرسح المدرسي الفرنسي خالياً من الوتيرة الغنائية. وجاء هوغو فقدم لهم فجأة نوعاً معاكساً تماماً. اما نحن — تلامذة العرب — فموقفنا من هوغو، التلميذ الصغير لشكسبير ، غير موقف الافرنسيين ، وقد اعتدنا ان نرى شاعراً يسمعنا من على المنبر مائة بيت كلها من النوع الغنائي ، اعتدنا ان نقرأ من الغنائيات حتى الاهاجي والمدائح، وقل اخيراً اعتدنا ادباً كاملاً يكاد لا يعرف الا النوع الغنائي. الافرنسيون ألفوا ، في الطريقة المدرسية ، التنظيم، والبساطة ، والوضوح . ونحن ألفنا « الفوضى الفخمة » والتعرض « للملحميات الناقصة » من مثل ادب هوغو ، واني على مثل اليقين من ان صاحب « البوردگراف » لا يخفق على مرسحنا إخفاقه في باريس.

فنحن بالتالي ، إزاء مرسح شكسبير الغنائي الملحمي ، نحس اننا في قلب ادبنا العربي المدرسي الذي لا يمكننا ان نخلعه بالكلية.

اما راسين فيغري ذوقنا الحديث المثقف على الادب الاوربي ، يغرينا بوحدة العارض التي تمكنه من درس النفس البشرية ، الامر الذي نلتفت اليه بظمإ في كتاباتنا الحديثة، ويغرينا اخيراً بطريقة تسهل — وهي وحدة ومنطق — عمل الذوق ، عدو الضوضاء والفوضى.

فأرى لزاماً ، والحالة هذه ، ان نلتفت بآن واحد الى صاحب «اندروماك» ،

وصاحب « همليت ».

***

وبعد فقد تأثرت ، في « بنت يفتاح » ، بطريقة راسين. فأخذت « عارضاً» ووصفته في « حالة اشتداده » ، فانقادت لي الوحدات الثلاث ؛ كما اني سايرت الميل العربي الى الغنائيات والملحميات فكنت كشكسبير غنائياً ملحمياً ، ولكن الى حدّ ، بحيث لا اسقط من المبالغات حيث سقط هوغو.

وفي وصف النفس البشرية رأيت ان المحدثين من مثل راسين وكورنيل لم يكتفوا بتصوير دقائق العاطفة الواحدة ، والعراك بين الاشخاص المختلفين ، بل صوّروا العواطف المتضادّة في النفس الواحدة ، وهكذا خلقوا « الفاجعة النفسية » او « فاجعة الضمير » . وهذه ميزة للادب الحديث على الادب اليوناني ، فلم امرّ بها دون نظرة جدية.

وإجمالاً كان المرسح عندي « قلقاً » . فقد ذهب جول لمتر الى ان المرسح هو هذا « القلق » الذي يغمر قلوب المشاهدين ، اذ يتوقّعون اصطدام خُلق بخلق مُضاد. فتخلو الرواية من المفاجآت على المشاهدين ، بحيث يتعرفون الموضوع كلّه منذ البدء إما لشهرته وإما لاتقان « العرض » القصير ، فلا يتساءلون بعدُ: « ما هو سرّ العراك النفسي ؟ » لانهم يعرفونه ، بل يتساءلون : « كيف يتعرّف اشخاص الرواية الى هذا السرّ ، وكيف يتحملون خطبَه ؟ ». اجل ان هذا « القلق » هو المرسح ، كل المرسح ، وقد تجلّى في الآداب

العالمية في مأساة خالدة : « اوديب الملك » لسوفوكل.

***

اما اني كنت في إنشائي على طريقتي المعروفة، التي تصف العواطف بالصور او على الاصح بالايحاء، فأمر ما انا بالنادم عليه آتي به في المأساة. وقد آن للمتأدبين ان يفهموا أصول المرسح ومقتضيات انواع المرسح. فالمأساة غير «القطعة» (pièce)، وغير « المهزلة »، وغير « الفاجعة الشعبية». المأساة مفترض فيها «جلال الحزن»، وان ترفعك بإبهامها الى مثل الحلم »، فتنفلت انت — وهذا شرط الفن — من الحقيقة الوضعية. ولهذا اوجبوا فيها الشعر دون سواها. فهي، دون بقية الانواع المرسحية، لا تحاكي الحياة العادية. والّا كان عليهم ان يحظروا الشعر فيها، حتى العادي منه، لانه ليس في حياة العامة. قلت ان انشاء المأساة يجب ان يكون على روعة الإبهام، يحاول ان يظهر العاطفة بالصور او يوحيها إيحاء. واني مُقدّم نظرية عملية جدّ عميقة، للسيدة ده ستال، قالت: « اذا حركت النفس عاطفة قوية، فالمرء العادي نفسه يلجأ الى الصور والاستعارات. هو يستعين بالطبيعة الخارجية ليعبّر من نفسه عما لا يُعبَّر عنه ». وهل المرسح غير « تعبير عن عواطف قوية » ؟

***

مفترضٌ في « المأساة » ان يكون موضوعها عريقاً في القدم، يعطيه غبار السنين جلالًا. فأخذتُ موضوعي من « العهد القديم »، واستخدمته للتعبير عن

عواطف بلادي وامانيها .

اما اشخاصي فقد جعلتها أميل الى اشخاص كورنيل . ذلك ان الروائي الذي « صوَّر الانسان كما يجب ان يكون » لتظلُّ طريقته اجدى لبلادٍ تريد في بدء نهضتها ، ان توفر المُثُل العليـا . واني لاجدها جريمة كبيرة ان يبدأ المرسح عندنا بوصف نفوس هذا العصر كما هي : ففي مثل هذا الوصف قطع رجاء ، وقنوط من حياة شعبٍ يأمل أحراره منه ان يلتفت الى الشمس .

***

اعطاني « سفر القضاة » من « العهد القديم » — وقل التاريخ — ان يفتاح رجلٌ بطش ولدته لجلعادَ امرأة بغيّ . فاذا كبر اخوته ، انكروا عليه الأخوة وطردوه . ولا يذكرونه الا متى اجتـاحهم « بنو عمون » واستبوهم . ومقابل محاربة يفتاح للعدو يُقرّ له اهله بحقوقه وبالسيادة عليهم . وينتصر يفتاح . لكنه يكون قد نذر قربان الظفر اول بكر تخرج للقائه . فيتفق ان تكون الاولى بنته الوحيدة . ويعطيها شهرين تبكي بكوريتها على جبل جلعاد ثم ينفذ فيها النذر . ويصير رسماً عند اسرائيل ان تقوم العذارى في كل سنة الى جبل جلعاد يتفجعن على بنت يفتاح .

وهكذا خلقت الرواية :

افترضت ان يفتاح على اثر طرده استبدل باسمه اسم جلعاد ، وكتم بنتـه الامر ، فربّاها لا تعرف في والدها — جلعاد — الا رجل اصلٍ واعمالٍ كبار ، كما

ربّاها على كره يفتاح، فاذا اجتمعت باتراب لها من اسرائيل يحتقرنه، ويحتقرن ذكره، لم تتوانَ عن مشاركتهن هـذا الاحتقار . وبدأت المأساة عند تردد يفتاح لدخول الحرب: أيترك بلاده للعدو سبية؟ ام يدخل المعركة فيشتهر اسمه ويفتضح أمرُه عند بنته؟ فكانت روح الرواية في «قلق» المشاهدين على بنت يفتاح «الابية» اذا عرفت سرّ ابيها «الوضيع»، وعلى يفتاح «المتكتم» اذا «افتضح» امره عندها.

بنت يفتاح

الأشخاص

يفتاح
راحيل : بنت يفتاح
المجنونة : امّ يفتاح ، عاهرة من جلعاد
تامار : خدنة لراحيل

يمثل المرسح تلّة من « طوب » ، قرب « جلعاد »

الحرية

جرحٌ على النورِ الهوانُ ،
ومـآتمٌ معـه الجنانُ ؛
وبـأضلعِ الاحرارِ « آبادٌ
صغيراتٌ » حسانُ ،
إن يستبدَّ بهـا الزمـانُ ،
يُغنِ ثورتهـا الزمـانُ .
لي ، مثـل غـيري بالعُلى
المثناف ، مرمىً وافتتانُ ؛
انا لا اذلّ ، وفي جبين
الشمس يبدو لي مكانُ !

الفصل الاول

مضرب إلى اليمين ؛ محرقة متداعية الى اليسار ، يظللها شجر جبلي . الليل في السحر يُنازع شيئاً فشيئاً .

المشهد الاول

يفتاح ثم المجنونة

يفتاح

أيُّ تيهٍ ، يا ربِّ ، أيُّ مقاديرَ تقاذفنَ عزّتي وقيادي ؟
أنا في حَيرة ، أهادن دهري ، واهزّ الآلامَ ملءَ فؤادي ،
انكرتني عشيرتي ، ورمتني هائماً في قفار « طوبَ » الجُهم ،
فرعُ مجدٍ ، مدرّبٌ في المعالي ، كنت دنيا ، لولا مذلّةُ أمي .
انكرتني «جلعادُ» عمري ، فلا تذكر بطشي ، لولا العدوُّ السابي ،
أتراني مجيرها من عِداها ، وانا الشِلْوُ بين ظفر ونابِ ؟
انا سِرٌّ كتمتُهُ عن كياني ، عن أحبِّ البنين ، عن راحيلا ،

إن أجِب داعي الوغى يَشع اسمي عند بنتي ، فالتقيها ذليلا ،
وإخال الاسباط تهتف باسمي في غدٍ ، وابنتي تُصِمُّ المسامع .
قذفتني الاقدارُ دُميةَ لامٍ ، فأنا حائرُ الأمانيِّ ، ضائع
بين أمّ مجنونةٍ تملأُ البيد صراخاً ، وتملأ الامس عارا ،
وابنةٍ صُنعِ ما أريد ، تردّت بغض يفتاح ، في الحياة ، شعارا ،
ذكرُهُ عندها جراحٌ على القول ، وتجديفةٌ على وجه قدسٍ ،
ومرورُ اسمهِ على شفتيها غيمةٌ من أسًى على جوّ عرسٍ !

يلتفت فجأةً فيرى امه بشعر كثّ ، وجفونٍ لاهثة ، واثواب ممزّقة

أمّ !

المجنونة

يفتاح .

يفتاح

لا أنا لست يفتاح . انا لابنتي علاء ونور !
أنا . . .

المجنونة

يفتاحُ .

يفتاح

لا تعيدي على اساعيَّ اسمي ، فكل ما بي يثورُ .

المجنونة

ابن راحيل ؟ انت تمنعني عنها ؟ ولا كتم بعدُ لا استارا ،
كبرت ، فالسؤال ينشقّ عن فيها ، وتبدو الدنيا لها أسرارا .
شئتَ أم لا ، أنت ابن فاجرةٍ !

يفتاح

امي،حنانيك ! أقصري في المقال !
انا أدرى ، الى الصميم ، إلى إخفاء حالي عني ، وانكار حالي .

المجنونة

يشتدّ عليها العارض فتقوم بشق الايماءات إلى الفضاء السحيق

عبثاً تصعد التلالَ المنيفات ، وتجري تهرّباً في الفضاء !
أتُعدُّ السقوط من علُ ، يا يفتاح ، من مرتقى ظنون الرائي؟!

يفتاح

عاودتها رؤى الجنون .

المجنونة

مستطردة

أتبغي مسحَ وجه الاوضاع بالأوهام ؟
عوّدِ البنتَ رؤيةَ الحاضرِ القفر ، فلا تشرق الشموس الدوامي .

يفتاح

باشفاق

لو تعي قولها ، وتعرف راحيل ، وجوًا عاشت به راحيلُ !

بترفق

طفلةٌ من تبسّم الصبح في الرونق ، مالت على العُلى وتميلُ .

مثلُ ابكار ربعها ، تعشق المجد ، وتزهو بالمحتد المعبودِ ،

تلتقي ، في الربيع ، بعضَ سجاياها ، وفي الانبياء بعضَ الجدود .

بحسرة

انا ربّيتُها على كره يفتاح ، وربّيتها على الكفر باسمي ،

فأنا ، عندها ، ابن اكرم بيتٍ ، باسم «جلعادَ» وابن أشرف أمّ !

اتراني أوحي لها سرّ فرعٍ لطخته أمي بثوب العار؟!

المجنونة

ترى راحيل فتنهد اليها

هي راحيل في الخميلة ...

يفتاح

يمنعها بتؤدة

خلّيها شعاعاً في جيرة الأزهار !

المجنونة

غاضبة لمنعها رؤية حفيدتها

الضياء الضياء من ترّهاتٍ نسجتها أناملُ الانسان ؟

وغدُ البكر ليـلةٌ وفرة الرجس ، وجوٌ مخضّبٌ بالهوان ،
كَذِبٌ طهرها !...

يفتاح

منتفضاً لاهانة بلته

أناتِك ، أمي !

المجنونة

كَذِبٌ مثـل محتـدٍ برّاق .

يفتاح

انت تعنين محتـدي ؟ وهو معنى فيه ، لولاكِ ، روعة الاشراقِ .
ولو انشقّت الظواهر عني ، لتراءى دمـانِ طيٌ جَنـاني ؛
ولو البِرُّ بالأمومـةِ يرضى ، لانبرى واحـدٌ لحرب الثاني .

وكأنه قد ندم على اهانة امه

عفوَ أمي ، إن اجزْ اليومَ بالقول !

المجنونة

وفي جرأة الـذليل اتضـاعُ !

يفتاح

بتكبر ولوعة

ما أنا بالذليل !

المجنونة

ما أنت يفتاح ؟ !

يفتاح

بتفجع وتحسر

بلى ! لو تميد تحتي البقاعُ !

مُرّةٌ في فمي الحياةُ ، ودكناء المرامي في ناظري المكلوم ،

وتكاد الشموس تظلم في وجهي ، ويبكي معي بياض الغيوم !

المجنونة

أبياضٌ في وجه نذل شريدٍ خلّفته جلعادُ إلف الضواري؟!

يفتاح

مهلَ أمي ! فربّ ضارٍ من الوحش عليه بعضُ النفوس الكبارِ !

المجنونة

إخفض الرأس .

يفتاح

في انكسار جبيني غضبةٌ للعلى ووجه الخيالِ ؛

إن ورثتُ الدم الأذلّ ، فنفسي ، في ضلوعي ، على جبينٍ عالٍ !

المجنونة

خلّ عنك الإباء .

يفتاح

محدقًا إلى وجه أمه

لا ، واعتزازي في اباني لقاء وجهٍ أغرّا ،

انت امي ، وانت سرّ عذابي ، فدعيني ابثك الحب مُرّا .

المجنونة

حبّك التذلل ؟ !

يفتاح

لا ، وفيه جلالٌ .

المجنونة

هو تذلٌ !

يفتاح

بنفاد صبر

تذلٌ ، إذا يلقاكِ !

وكأنه ندم على كلمته

أنا اهواكِ ، كيف كنتِ .

المجنونة

وقد تقدم يفتاح يريد تقبيل يدها

تراجع !

يفتاح

انا اهواك .

المجنونة

عُدْ

يفتاح

يكون قد ارتمى دونها ، يرغمها على التراجع

أنا اهواكِ !

اهواك؟ لفظة لا تفيد معنى الحب الطاهر البريء الذي يكنه ولد لامه .
انها الى العشق اميل (ك. ف. ع)

فاذهبي.

المجنونة

غاضبة لطردها

انتَ ؟ أنتَ يفتاحُ ؟

يفتاح

خلّيني.

المجنونة

مولولة من الداخل

طريد الركبان من كل ظعن؟!
ثمر العار! ولد فاجرة حمراء! وُلدي انا! وتبرأ مني؟!

يفتاح

ايها الخفنة الحقيرة من نثر الضحايا، ومن رفات الجريمه،
لا، وراحيل، ما تبرأتُ من وجهٍ تهادى عليه طيفُ الأمومه.

المشهد الثاني

يفتاح وحده

ربِّ يكفيك ذلتي في حياةٍ وَفرة الصبر، وَفرة الآلام،

أترى يطلع الصباح ، ويفنى اليومُ في سرحة الزمان الدامي ؟

يلتفت الى حيث مضت امه

ذهبت تنشر الصراخ وجيعاً ، وإخال احتضاره في ضلوعي ،
ويكاد البعاد يحجبها عني ، وتبقى بُراقةً في دموعي ؛
تركتني إلف التأمل في حالي ، وفي طالعي الوجيع القروح ،
ورمتني سحابةً في فضاء التيه ، العوبةً بكفّ الريح .
رأيُ مجنونةٍ لها ! أم كلام الوحي ألقاه في لماها الله ؟
وإلى مَ الكتمان في أمر سرٍ بدأت تلتقي عليه الشفاهُ ؟
حيرةٌ مرةٌ تهدم نفسي ، وتريني الحياةَ حرّى الكلوم
أيُّ هولٍ غداةَ تعرف راحيلُ، وأيُّ ارتعاشةٍ في صميمي !
بين خطبين صارخين بصدري : ذلُّ أهلي ، وجرحُ آمالِ بنتي ،
كيف أحيا ، وكيف أسحب رجلي على الأرض ، وهي تنهار تحتي؟!

مستقرّ الرأي

أنا أمضي لمصرعي ، في وغى الأحرار ، أقضي حقَّ الأباة العوادي ،
إن يَفتني الفرع المهلّل كبرًا ، لا يفتني الردى فداء بلادي .
فتراني راحيلُ في النصر ، أو في الموت ، أسمى مني ، ولم أمحُ ذلي ؛
وإذا يذكرون ذلي لديها ، تلتقيهم براية أو بنصلِ !

يتناول درعه عن المحرقة

المشهد الثالث

يفتاح ، راحيل

راحيل

فرحة ، تحمل طاقة من الزهر

أإلى الحرب ، يا أبي ؟

يفتاح

وإلى النصر .

راحيل

هنيئاً لنا افتداء الديار !
انا أهواك ، يا أبي ، قِبلة الناس ، عقيد الفوارس الأحرار .
انا اهواك ، حاملَ الرايِ سمحاء ، ومستقبل الطعان سخياً ،
بين لمع الحراب ، بين المواضي ، يخفق النصر من حواليك حياً .
تخلع المجدَ والهناء على جلعادَ ، فجراً مجرِّر الاردانِ ،
فيقولون في لقائك : « حرٌّ » ويقولون : « بنتُهُ » ، وكفاني !

يفتاح

تعشقين العُلى .

راحيل

واعشقه في والدٍ ، مطلع العُلى من ظُباهُ ،

فهو معطيٌّ رفرفاتي إلى المجـد ، ومغنيٌّ عن علي في سواه .

تبدأ الفاجعة النفسية تتراءى على وجه يفتاح، ويتتابع ذلك في كل من المشاهد التي تقوم على يفتاح وبنته .

عجبٌ ما لوجهك أصفرَ وأنهدَّ رواء ؟

يفتاح

راحيـلُ ، خلّي المفـاخر .

راحيل

لِمَ يا والدي ؟ ونحن . . .

يفتاح

كباقي الخَلْق .

راحيل

لا لا ، ونحن أسمى منـائر ؛

نحن فرع الامجاد . ليس « شكيمُ » في ذوينا ، وليس « يفتاحُ » . . .

يفتاح

بـكفي !

لا تزيدي ، راحيل ، لا تتجنّي !

راحيل

متعجبة

أيّ ذنبٍ اتيتُهُ ؟ أيّ خسفٍ ؟

انا عرَضتُ ، عن قِلىً ، بالذليلَين: شكيمٍ ، وتربةٍ يفتاحا:
مائتٍ ، ذكرُهُ ظلامٌ ؛ وحيٍّ ، يجرح الخاطرَ اسمُهُ والصباحا .

يفتاح

لا تضلّي ، راحيل ، في كفِّ يفتاح أماني الاحرار من جلعادا .
بطلٌ لا يُخبُّ في سرحة المجد سواه ، إذا الفخار تنادى .
فاذكري الحربَ ، واذكري الذلَّ ، يا راحيل ، «عمون» في حمانا يجورُ ،
داسنا : فالربوع فقرٌ ، وأهلوها جباهٌ زلفى له ونحورُ .
لا وليٌّ يقودنا . . .

راحيل

لا وليٌّ ؟ !

يفتاح

غير يفتاح .

راحيل

والذليل ذليلُ !

يفتاح

اقصري في المقالِ ! إن يمشِ يفتاح إلى الحرب ، فاللهاث صليلُ ،
والحياةُ الخنوعُ غضبةُ مجدٍ ، والبلادُ انتفاضةٌ شمّاء .

راحيل

بغضب

يا «جلعادَ» ! يلجأون إلى النذل ، فأين الأحرار ؟ اين الإباء ؟

تعير إلى أبيها

اين جلعادُ ، فارسُ الظفر الزاهي ، أبي ، أين سيفُه المسلولُ ؟

يفتاح

كأنه يتحسر

لستُ في الحرب مثلَ يفتاحَ .

راحيل

ما قلتَ؟ وأمساً قامت اليك السهولُ

في رجالٍ مَكارمٍ مرّغوا الكبر اتضاعاً على تراب الدارِ ،

بسمة منك أرقصتهم فماجوا طرباً يلتقون لمع انتصارِ ،

هتفوا فيك للوليّ المفدّى ، والتقاك الشيوخ بالصولجان ،

وإذا ازورّ عنهُ طرفُك ، مادت بهم الأرضُ في ثياب الهوانِ .

ثقةٌ فوقها التلفتُ لله ! فهل نال مثلها يفتاح ؟

يفتاح

لا تقيبي إليه أيّ كميٍّ ، تخشع البيضُ دونه ، والرماحُ ،

راحيل

انت تعلوه . أنت سيفٌ صقيلٌ شقّه الله مَشرقاً في البريّه ،
بطلٌ فيك من يشوعَ مُعيد الشمس ، ليلاً ، بضربةٍ علويّه ،
تفتل الزند من تجهّم لبنان ، وتلهو بالموت حُمْرُ بنانِك ،
وتكاد الذُرى تُحسّ تهاديك ، ومِلْءَ المدى صهيلَ حِصانك ؛
انت تعلوه .

يفتاح

لا !

راحيل

بنفاد صبر

اما انت جلعاد ؟!

يفتاح

بلى ، يا ابنتي ، ويفتاح دوني .

راحيل

أين منك الوضيعُ ؟

يفتاح

وحده

ربي ، كفاني !

راحيل

اين منك الثاوي على كل هونٍ؟!

ذلّ يفتاح . . .

يفتاح

بسطوة وقد نفد صبره

هاتِ ، راحيلُ ، سيفي ، ونبالي ، والقوسَ.

تخرج راحيل

يا ويــلاهُ !

ايّ خطبٍ يدهاك ،ان يبدُ أمري ، يا ملاكاً يفتاحُ كان اباهُ !

عُمُرٌ قـاتمٌ يمرُّ ولا ينشقّ ، دون انهياره ، عن هنـاء ،

فيذلُّ ابن آدمٍ بيديه ، لا بذنب الأجـداد والآباء؟!

يحس وحشة الانفراد

أين راحيلُ؟ بتّ أخشى انفرادي ، وأرى في الفضاء مرّ سوادِ ،

ثقلت أضلعي على قلبي الكاهل ، واهرورقت قوى أجلادي ،

ويكاد الجثمان ينهار عني ، ويكاد الهواء يأبى نهوضي ،

اين راحيلُ أرتمي في يديها ، وقعةَ النسر والجناحِ المهيضِ!

يستند تعباً الى المحرقة

راحيل

وقد عادت بالسلاح

والدي ، ما اعتراك ؟ رعشةُ خوفٍ وعلى كفّك انتصار الغداة؟!

بفتاح

وقد استيقظ من ذهوله وآلامه

لا ، وعينيك ، لم أخفْ ! وسواء وقعُ دنيا، عندي ،ووقعُ حصاةٍ .

وإلى الملتقى .

يأخذ السلاح ويخرج

راحيل

على بركات الله مسراك ، والتفاتُ بسهامك !

تفتدي روحك البلادَ ، إذا عزّت ، ولم يكنها افتداء حسامك.

المشهد الرابع

راحيل وحدها

كل شيء حولي تغيّر من عهدٍ ، فنفسي في حيرةٍ وظنونٍ ،

وإذا التقي أبي فعلى حزنٍ ، وعهدي به ضحوك الجبينِ .

أيّ سرّ يحوطني بقنوطٍ ، وانا بعدُ في ربيع الشباب؟!

لم تمرّ الأحلام في خاطري بعد ، ولم تحظَ في الدجى بجوابي.

مَنعوني بالأمس مجنونةً مرّت تنادي باسمي ، وتطلب خدري ،
ورموني في عزلةٍ أجدُ الأفواه همساً ، والعينَ لفتة بِسرٍّ .

أغانٍ من الداخل

رجّعي ، يا رياح ،
نغمات الهناء ؛
وافتحي باب السماء
للعذارى الملاح .

راحيل

متجهمة الوجه

مُنشداتٌ ! والناسُ في غمرة الذلّ ، وسيف العُداة في جلعاد؟!
مُنشدات أم خالعاتٌ على الابطال روحاً وثابةً وجهادا؟!

اغانٍ من الداخل

رجّعي ، يا رياح ،
زمزمات القنا ،
واجتني طيب المنى
عن سيوفٍ صباح .

راحيل

فرحة

نَغَمٌ ناصِعُ المُنى ، أحمر الإرعاد ، يَنشقّ في رحاب الفضاء ،
لو يجولُ انتفاضةً في صُدورِ الناس ، أو وثبةً إلى العلياء !

إلى المغنيات

يا عذارى جلعادَ ، غنّين بالسيف ، وهِجنَ الربى ، وهجن الصخورا ،
وأمتشقنَ الرجالَ من حلل الأطيافِ ، وابعثنهم لهيباً ونورا .

تغني على النغم نفسه

غنِّ ، يا جبلي ،
بالأماني السماح ،
وأمتشق منها الرماح
ليد البطل .
...
فارسٌ آمننا
ببلوغ الأمل ،
يرتقي أسمى القلل ،
يرقص الزمنا .
...

قم بنا ، يا جبل ،
نلتفتْ للشروق .
الك بالجوّ حقوق ؟
مثلما للـدول !

ستار

الاسطورة

يا روعةَ القِدَمِ المُطلّهْ
خلل الترفُّع والمذلّهْ ،
سيّانِ أرقصتِ الزمانَ
وشيّدتِ كفّاكِ جهلهْ ؛
أنا دونَ هيكلكِ الرفيعِ
أبثّكِ الإجلالَ كلَّهْ .
جرّحتِ آهاتي ، والقاها
على شفتيَّ نهلهْ ؛
ما شئتِ كوني ! فالألوهة
في وشاحكِ مستظلّهْ !

الفصل الثاني

المشهد الاول

راحيل ثم تامار

راحيل

ملعبَ النورِ ، ملعبَ العطر ، يا جلعاد ، أصبحتَ قدّةً من ظلامِ ؛
خضَّب الاثمُ بالدماء حواشيك ؛ فبهج الصباح ، دونك ، دامِ !
لم يجئ بعدُ منبئ عن لظى الحرب ، وعن قِرن والدي في الطعانِ .
قيل : إن يدخلِ الوقيعةَ يفتاح يزّجِ جلعادَ في الميدان .
وإذا أنكرُ انتصاراً على التذلِ ، فلا أنكرُ الظروف العُجابا ،
رفض الحرب ، مثل جلعادَ ، بالامس ، فهل يَلتوي الذليلُ رغابا ؟

هي تامار ، خِدنتي ، تحمل الانباء بكراً من الثقات الناسِ ،
ذكرت حيرتي فجاءت ، ولا بدَّ ، إلى عزلتي بكل مؤاسِ .

تامار

بشرنا ، أختِ، بشرنا ! رضيَ اليفتاح !

راحيل

جوزيتِ ألفَ بشرى لبشرى !

تامار

ومشى للقتال في سحرِ الأمس ، شجاعاً يجرُّ المجد جرّا .
ما درينا إلّا مساء ، فقمنا بقرابينَ بكرٍ ، وصلاةٍ ؛
فانظريها ، جلعادَ ، قطعةَ نارٍ تتعالى لمبدع الكائناتِ :
الحنايا معابدٌ وصلاةٌ ، والأيادي كنّارةٌ ودفوف ،
وانظري الجوَّ دفقةً من أغانٍ مسمعُ الكون دونهنّ رهيفُ ؛
وانظري الحُلمَ . . .

راحيل

اي حُلمٍ تذكرتُ وجميعِ الألوانِ ملء جفوني ؟!
في منامي رأيت سيفَ دماء . . .

تامار

مقاطعة

سيف يفتاح في بني عمون ؛
فاطربي .

راحيل

لا طربتُ ! حلمي مخيف يملأ الصدرَ رعبُه والمآقي ،

فيه زهو البياض يرقص مغناجاً على حمرة الدم المهراق:
كنتُ في الحلم طلقة الوجه والقلب ، كورقاء في الربى غناء ،
حسدتني الزُهرُ العُلى ، حسدتني المُنية البكرُ في هوى عذراء ،
حين نوديتُ من علٍ : أن دعي جلعادَ ، والنصر ، واقبعي في الظلام .
فعصيتُ السماء — عفوكَ ، ربي ! — وإذا قبلتي بريقُ حسامِ ،
وعصورٌ تدور حولي سراعاً ، ويشقّ الزمانُ عنها الستورا ،
فأرى عصفة الرياح صراخاً ، وسواقي « جلعاد » دمعاً غزيرا .

تامار

بخوف

ايّ حلمٍ ، راحيل !

راحيل

ما زلتُ حيرى في رُؤاهُ على توقّع خطبٍ ؛
وأحِسُّ المساء ملء جفوني ، وعلى بسمتي الجريح ، وقلبي !

تامار

حدّقي ، أختِ : في البعيد سيوفٌ لامعاتٌ بين الغبارِ ، وخيلُ .

راحيل

وقد ازداد تشاؤمها

أتراهم فرسانَ عمون في نصر ، مشي دونهم من السّبي سيلُ ؟
ملأوا السهل والربى ، فعلى جلعاد ظِلٌّ من الدجى والفناء ،

لا رجالٌ تذود عن قـدسنا ، والناس تمشي للحتف مشيَ الشاء .

يكون التشاؤم قد بلغ منها حدًّا قصيًّ

يا صباحَ الدمار ، اين الدواهي الحمرُ تنقضّ من فجـاج السماء ! !
أين من يمشق النجوم غضـاباً ، ويكبّ النيران في الارجاء !
ينثر الموت في البرايا غبـارًا ، ويدّ الجبـال فوق الجبال ،
يبعث البيـدَ والبحـارَ دخاناً ، عاصفـاتٍ رياحُـهُ بالزوال ،
ويعيـد الغمرَ القـديمَ مُخيفاً ، والهيولى وزمزمـاتِ المنيّـه !
إن تُبدنا العُلى ، فلا اشرقت يوماً ، ولا رفرفت بتـاج البريـه !
الضحايا . . .

المشهد الثاني

راحيل ، تامار ، المجنونة

المجنونة

عشرون الف أسير

راحيل

بحسرة

أتراها البشرى ? !

المجنونة

وألف قتيل

راحيل

بغضب

حبّذا لو قضوا جميعاً .

المجنونة

قضاءٌ علويٌّ !

راحيل

قضاء شعبٍ ذليل !

المجنونة

ومئاتٌ من الخيول السنيّاتِ ، وعشرون وزنةً من نضارِ .

راحيل

لا ذكرت الأموال !

المجنونة

لِمَ لا ؟

تامار

ويفتاح ؟

راحيل

بحسرة وهزء

وحامي الحمى ؟ وحامي الذمار ؟!

المجنونة

بين لمع الحراب . . . بين الأسارى . . .

راحيل

مقاطعة

يا اذلَّ العبـدان في عمون !

قدتَ جلعادَ من مذلة هونٍ أبـديٍّ إلى مذلَّـة هونٍ !

سرتَ . . .

المجنونة

راحيل ! . .

راحيل

سرتَ عبدًا ، وعبدًا عدتَ . . .

المجنونة

راحيل ! . .

راحيل

لو رجعتَ قتيلا !

عدتَ حيًّا تجرّر القيد . . .

المجنونة

خلّي القيد جنباً .

راحيل

يبقى الـذليلُ ذليلا !

المجنونة

مـا تقولين ؟ مـا تقولين ، راحيل ؟ ويفتاح قِبلـةُ الامصار ،

أشرق العزّ في الربوع ، وخلاها انتصاراً يقوم إثر انتصار .

راحيل

ما تقولين ، يا عجوز ، انتصرنا ؟ نَحنُ ؟!

المجنونة

نصراً غنت به البيداء!

وكأنّ الفرح قد زاد في خبلها

كنتُ في الحرب كلّ شيء ، وكان الدمُ مني يقضي بها ما يشاء .

تامار

لراحيل

مَن تكون العجوز ؟

راحيل

مجنونة تهذي ؛ دعينا من ترّهات الجنون .

المجنونة

انا قدتُ الرجال . . وُلدي . . دمائي ؛ أنا أمّ الوليّ ، والناسُ دوني .

راحيل

باشفاق

هاجتِ المرأة الشقيّة .

يسمع غناء من الداخل

تامار

خلّيها ، وقومي الى لقاء الجموع :

العذارى في موكب يتغنّين بغازٍ يجتاحُ أم بشفيع !!

راحيل

بحسرة

جالَ في خاطري انتصارٌ ، فامسى هذياناً مراً على هذيانٍ ؛

أملٌ أشرقت جوانبُه ، وانشقّ عند اقتباله عن هوانِ .

المجنونة

ممسكة براحيل وقد اوشكت ان تخرج

أين تمضين ، يا ابنة الظافر الدامي ؟؟

راحيل

دعيني ، واخلي معالم داري .

المجنونة

تطرديني ؟ !

راحيل

باشفاق وندم

طردتُها ، وبصدريَ بعض ميلٍ لها ، وبعض وقارِ .

المشهد الثالث

المجنونة وحدها

سكوت طويل تسند المرسح في خلاله أغانٍ تجيء من بعيد . وفجأةً تلتفت المجنونة الى الداخل فرحةً ، وكأنّ العارض قد خفّت وطأته

قرب الظافرون من منشدات النصر ، يجري جلعادُ فيهم حبورا ،

مائج الاخضرار في الظفر الرحبِ ، تعرّى فيه الجمال نضيرا .

خلعوا فوقه البطولةَ أبرادًا ، وشقوا الظُبي عليه نجوما ،
أيُ قِرنٍ أمامهم يعتلي المهر المجلي ، ويستطير الغيوما .
فارسٌ قدّهُ المضاء من الشمّ الروابي ، والشُرّع الاسياف ،
قرّبي منه ، قرّبي منه ، راحيلُ ، وبثي لقياه طيبَ القوافي .

يسمع غناء فتاة غريبة ' فتقابله المجنونة وكأن العارض قد عاودها

وأزيحي عن دَرْبه قينةً دكناء تشدوه نغمةً دكناء ،
الغناء الغناء عصفة إرعادٍ ، وأشباحُ مأتم تتنادى ،
صرخاتٌ غريبةٌ تمزق الصبح ، وجهش على السني ، واحتضارُ ،
أين راحيل تملأُ الأفق تحناناً ، فيغفو على يديها النهارُ ؟
قدمتها عذراء قسرًا ، والقتها أمام القيان ، بين الدفوف .

يرتفع صوت راحيل ' فتعود المجنونة الى هدوئها

انشديه ، راحيل ، اشجى من الحبّ ، واسمى من اصطكاك السُيوفِ ،
وابعثي اللحن رافلًا ، واملئيه بحفيف الجوانح البيضاء ،
في نفاثاتك القتيَّة شيء من خضاب الأسى ، ولون الهناء .

بدهشة ' وقد عاودها العارض

ما دهى موكب العلى ؟ أجفل الفارسُ ، أم مادت الربى بالجوادِ ؟
أم النـاس بالرجوع ، وألوى كاسفَ الوجه ، واهيَ الاجلادِ .
مستضامٌ ، ترجّل الآن ، وانهال على المنشدات يصرخ ذعرا .

هربت منه خاشعاتُ العذارى ، غيرِ راحيل ، فهي تهتف بشرا .
وهو ساجٍ ، يُلوي عليها وتُلوي : دفقةً من سَنى على لبنان ،
أيّ سرٍ في قلبه يترك الصبح مريضاً في غمرة الأحزانِ ؟
فالبرايا مثلُ ازورارٍ عن الهَديِ ، ومثلُ اختلاجةٍ وانقضاء ،
والهدوء الرحيبُ ، والقيظ والنارُ انهيارُ الفضاء فوق الفضاء .

بعد سكوت وتأمل

ما تُرى الظافر المجلَّب بالقوّة ، يبدو موشحاً بالذهول ،
يمسح الدمع خفيةً عن عيون الناس ، عن نفسه ، وعن راحيل !

سكوت طويل . اغانٍ مُبهمة تجيء من بعيد . تقعد المجنونة دون تمهد في ظلّ المحرقة بحيث لا يراها الداخلان

المشهد الرابع

المجنونة ، يفتاح ، راحيل

راحيل

هاتِ ، يا والدي ، عن الحرب ، فالدمعُ بعينيك ريبةٌ في انتصارك ،
والتقاء الحسان بالبسمة الحرّى دليلُ انتحابةٍ في قرارك ،
أتراها هزيمةٌ ؟!

يفتاح

لا ، وراحيل ، فيفتاح في انتصار فردٍ :

سفحَ العزّ دوننـا ، وكسانا برد مجدٍ رحبٍ على برد مجـدِ ،
فجرُ نصرٍ يحيـا على الاعصر الغرّ ، وتشدو جلالـه البيـداء ؛
عـاد يفتاحُ بالغنائم والأسرى تضيق الربى بهم ، والفضاء .
ضرب الضربة السخيّة في عمون ، فانهـدّ عزّهـا بحسامه ،
حصد الهـام ، فـالسهول تجلّلنَ بهامٍ وقفٍ على أقدامه .
لقي الجيشَ في « عروعير » صبحاً ، يتزل الرعبَ دفقُه ، والظلاما ،
تتنزّى الهمّات عن جانبيه ، فتخال التهـديد منه حِماما ،
لا انتهاء له ، ولا وهَنٌ يُضرَب منـه ، فتبـدأ الهيجـاء .
وتلوّت رجـالُنا مضضَ الحيران لاقته فجـأةٌ نجـلاء ؛
لم يطقها يفتاحُ وقفـةَ جبنٍ ؛ فعلا صوتُـهُ يُصمّ الرياحـا ،
أمر القوم بالهجوم ، وبالموت ، فادمى السنى ، وأدمى الصباحا ،
كم نفوس تناثرت والعوالي ، وجسوم تعانقت والمواضي ،
خطبة السيف خطبة الحق ، والكاسي ثيابَ الدماء كاسي البياض .
صخب الحاملين ملء الصحاري ، ونزاع الفرسان مـلء البرايا ،
والتلال الـدكناء من جثث الابطال ، والافق من لهاث الضحـايا .
يتهـادى يفتاح في مطلع الجيش ، على عزّة الأبيّ الظـافر ؛
قيل : مستقتلٌ ، وقيل : شجاعٌ عشقتـه ، فهـادنته البواتر .
يتحاشى عن الجبـان ، ويجري عارضاً صدره على المقـدام ،

فـاذا يلتقيه في فجأة الطالب ، يرمي بنفسه للحسام .
وتردّى النهـار بالـدم فانزاح ، وابدى المساء قبل المساء ؛
ورأى الناسُ عمرهم مثقـل الخطو ، كسولًا إلى لقـاء القضاء ؛
فتنـادى عصفُ المنيـة فيهم ، وتهـادت منه الربى والسهول ،
فاذا فجعـة الحراب فنـاء ، يتلوّى على العدى ، ويميـلُ ؛
وإذا دفقةٌ من البـدر تجلو اكماتِ الاحيـاء والاموات ،
عرف الناس أيّ شطرٍ اصابوا ، فاذا السيفُ في ظهور العـداة .
وسرى الفتحُ من «عروعير» ، يبغي حدَّ «منيتَ» والقرى العشرينا ،
وعلى رقصـة السنى والأغـاني داس يفتـاح في بني عمونا .

راحيل

يا نواجي العهد الجديد ، تغنّي! واصغَ ، يا كون ، واطربي ، يا سماء !
وتهادي على بطولة قومٍ ، هم جبينٌ إلى العُلى وضّاء !
واملأي الارض باسم ربك مجدًا ، باسم جلعادَ ، باسم اسرائيـلا ،
واقطفي الشهب والشموس ليفتاح ، وصوغي لشعره الاكليلا !

تلتفت الى الداخل كأنها تناجي يفتاح ، بينما يفتاح الى جنبها يكظم دموعه وآلامه

يا بريقَ الآمـال ، يا جانيَ المجد ، رعاكَ الجلالُ من لبنان ،
واشرأبت زرقُ النجوم تحيّـيكَ بشتّى الأضواء والالوان .
يا صلاةَ الرجوع لله بعد الكفر ، بعد المحلولكات الخطوب ،

ذكرتك العذراء في صفوة البال ، وفي هجعةٍ بحضن الحبيب .
عفو اردانك النقيّة ، يا يفتاح ، عفو الرمال تحت خطاكا !
انا جدّفت ، من غروري ، على القدس ، غداةَ اقتربتُ من ذكراكا .

يفتاح

عدتِ ، راحيل ! للصواب ، والفيتِ بيفتاح زَيْنَ اسرائيلا !

راحيل

زينهم ؟ لا . فحبذا الظافر الأكبر في مثل والديكَ أصولا !

يفتاح

تظلمين اليفتاح ، راحيلُ .

راحيل

لم اظلم . وحقّ تكبّري واعتزازي !

تشير الى أبيها ، وكأنها تذكّره بالكبر الذي ربّاها عليه

والي بثني النياسمَ من تيه الرواسي ، ومن شموخ البازِ .
عشتُ في قربه ، يتيمةَ أمّ ، فانا منه دنيواتُ الهناء ؛
لا اماني لهُ سواي ، ولا لهوَ ؛ يريني في الارض ظلَّ السماء .
كلُّ شيء حولي علاءٌ وكبرٌ ، كلُّ شيء مخضّبٌ بالكمال .
ما قرأتُ التاريخ إلّا جليلًا ، في فم يبعث الكلام لآلي ؛
أو رأيتُ الاعمال الّا كبارًا ، من يدٍ خصبة الندى والسماح ؛

وكتابي أبي ، أرى فيه من موسى، كليم العُلى ، ومن يفتاح .
وإذا نلتقي على ذكر أمي ، ففضاءٌ مغرورقٌ بالشعاع ،
او نغني بمكرُماتِ جدودي ، فرباعٌ غراءُ إثرَ رباع .
خلّني ، خلِّني ، على ذكر يفتاح ، ارى فيكَ أطيب الناس ذكرا ؛
وإذا تشرف البلاد بيفتاح وجلعاد ، تلتقيك الأبرار .
هاتِ خبّر عن روعة الحرب والنصر ، وعن بُسْلٍ لديك أجادوا .

يفتاح

كلُّهم باسلٌ .

راحيل

وايّ الرجال الغُرّ جلّى ؟ يفتاحُ ام جلعادُ ؟

يفتاح

وحده

ربِّ !

راحيل

قلها بلا اتضاع !

يفتاح

بعد تحيّر

كلانا .

راحيل

لا ! وانت المجرّر المجدَ أصلا ؛

إن يعادلك في الطعان ، ففي فرعك كبرٌ يلقي على الشمس ظلّا .

يفتاح

ما تقولين ؟ بعد رفرفة النصر ، وبعد انتفاضةِ الرايات ،
بعد خوضِ الطعان مرتفعَ الرأس ، وخلع العُلى على الساحات ،
بعد نسج الشموس بردةَ مجدٍ ، لا ترين اليفتاح غير وضيع ؟!

راحيل

هو ما قلتَ ، يا أبي ،

يفتاح

وجلاء الفتح ، يا بنتِ ، عن غوالي الربوع ،
وانتشالُ الاطفال من غمرة الموت ، ومنعُ المخدّرات النساء ،
وحماء الاطهار فينا العذارى من فجور الصُّبابة الاعداء ،
والفعالُ الغرّ العُلى ، مَن اتاها غير يفتاحَ ؟

راحيل

انت ، والامجادُ .

يفتاح

ما انا والرجال الّا دمى خرسٌ ، ولولا يفتاحُ ، صمٌ جمادُ .
بثّ فينا العلى ، وقادَ الشتاتَ النذر منا ، مجرّحاً ، ملتاعا ،
فاذا نحن نقتفي إثر يفتاحَ ، فنمشي الى الخيالِ سراعا .
نحن ، لولا يفتاح ...

راحيل

تقاطعه بمثل الغضب والعتاب

يكفي ! تراءى لك سَمحُ الطعانِ سمح الاصل ؟
امتــدحْ طعنةَ الموفّق ، يا جلعادُ ، لا تمتدحْ ذراع الأذلِّ .

يفتاح

وحده

ربِّ !

راحيل

حاربتَ جنبه ، فغزا قلبك بالوَفْر من جميل الطعانِ ،
فنسيتَ الاصل الذليل ؟ !

يفتاح

أناةً . . .

راحيل

مستطردة

واشتريتَ العُلى له بالسنانِ؟!!
والدي ، يا سليلَ مجدٍ عريق ، لي رجاء ، على هواك ، وحيدُ :
لا تجد في الفعال مغفرة الذلّ ، فلا يُشترى أبٌ وجــدودُ .
أنا أخشى مَغَبّــةَ وَثرة الشرّ ، إذا ينمحي الخنى في الوليدِ ؛
يطهر المرء ، وهو يرعى رؤى اللعن بثغر الحفيد قبل الحفيد .
لا أطيق امتداح يفتاح من فيك ، فدعني أمضي .

تخرج

المشهد الخامس

يفتاح ، المجنونة

يفتاح

حنانكَ ! ربّي ،

أيّ كاس تذيقني ، في انتصاري ، من دمائي ومن حشاشة قلبي؟!

انا كفّرت عن خطيئة آبائي بعمرٍ من الأسى والعذابِ ،

واعتزلت الدنيا اغتفارًا ، وضحّيتُ هنائي ، تقرّباً ، وشبابي !

ونذرت الثمين والسمحَ قربان ظهوري على العداة ، وثاري ،

وتماديت انذر الغادة العذراء أولى المغنيات انتصاري ،

وإذا التقي جموعَ العذارى ، تتراءى راحيلُ نصبَ جنوني ،

وأشيح الانظار عنها فالقى ، ما تلفّتُّ ، وجهها يلتقيني ؛

وسأقضي ، يا ربّ ، بعدُ على بنتي ، فيا ربّ ، هل كفتك المنيّه؟!

المجنونة

تكون قد تركت مكانها والتقت يفتاح وجهاً لوجه

ايه ! يفتاح ، ما يجول بعينيك ؟

يفتاح

هاربًا

دعيني ، نذرت بنتي ضحيّه !

المشهد السادس

المجنونة ، ثم راحيل

المجنونة

أيّ نذرٍ ! بفتاح ، لا شرعة الله رأته ، ولا كرور السنينِ !
انا مجنونةٌ ، وأنتَ على رشدٍ ! فخذ من في رشاد الجنونِ .

تدخل راحيل فترتمي المجنونة دونها ضارعة

أهجري ، بنتِ ، مضرب الظافر الدامي ، وخلّي مطارف الارجوانِ ،
وتعالَي الى حيـاةِ البراري ، فهي أبهى من بهجة الصولجانِ .

راحيل

متذكرة الحلم

صوتُ حلمي !

المجنونة

تعجّلي ، فهناء العمر مرمى فراشةٍ من سراجِ !

راحيل

تعود الى نفسها وكأنما تهزأ من المجنونة

أهجرُ البيت مثل مجنونة ؟

المجنونة

لا ، مثل من يتّقي جنون التاج !

أسرعي ، بنتِ .

راحيل

في حنانِكِ شيءٌ من أبي في تعطُّفٍ وتمنٍّ .

المجنونة

في تمنّيهِ ؟ في تعطّفهِ ؟ لا .

راحيل

بعجب

أنتِ تأبَينَ ؟

المجنونة

بحسرة واعتزاز

كلُّ ما فيه منّي .

راحيل

بقلق

من تكونين ؟ يا عجوز ،

المجنونة

دعيني ؛ واهربي قبلما يفوت الاوانُ .

راحيل

وقد تزايد قلقها

أنبئيني مَن انت أتبعكِ .

المجنونة

خلّيني وشأني ؛ فكل ما بي هوانُ !

راحيل

تهزّها فاقدة الصبر

هل تقولين ؟

المجنونة

لم أعد في جنوني فـأزيدَ الضنى بقلبٍ حزينٍ ،
أهربي .

راحيل

ان كشفتِ سرّكِ .

المجنونة

لا ! لا !

راحيل

لِمَ تأبَين ؟

المجنونة

لم أعد في جنوني .

ترى يفتاح مقبلاً

قربَ السيفُ ، فاتقي السيفَ ، راحيل !

راحيل

بحيرة

ابي !

..

المشهد السابع

المجنونة ، يفتاح

يفتاح

يكون قد رأى امه وبنته معا

مَن أرى ؟ خباءكِ ، بنتي .

المجنونة

وقد حوّلت تضرعاتها الى يفتاح بعد أن خرجت راحيل

رحمةً بالجمال ، بالرونق الضاحي ، بزهر بكر الجمال ونبت !
رحمةً بالشباب ! . . .

يفتاح

مَن قال ؟! . . .

المجنونة

يفتاح . . .

يفتاح

إلهي ! أتسمع أسمي داري؟!
إخفضي الصوتَ .

المجنونة

عفوَ نصركَ ، يَفتا . . .

يفتاح

اخفضي الصوت عن نسيمٍ سارٍ .
كلُّ شيء في بيت راحيل كبرٌ ، في ثراها ، في المنحنى ، في التلول ،
إخفضي الصوت يحفل المضرب الذاكي براحيل ، أو هوى راحيل .

المشهد الثامن

يفتاح ، المجنونة ، راحيل

راحيل

يكون قد تقدمها جلبة من الداخل

والدي ، والدي ، أتاكَ بالنذر ، ورحماك بالعذارى الحسان !

يفتاح

سمعتنا ؟ !

راحيل

رحماك ، جلعادُ .

يفتاح

وحده

جلعاد ؟

لراحيل

اطلبي ، إن اردته ، صولجاني .

راحيل

صولجان ؟ ! أبي ، بجلعادَ ابكارٌ حسانٌ نذرت منهنّ بكرا ، فاعفُ عنها .

يفتاح

ربّي !

راحيل

وابكار جلعاد مروج الربيع نورًا وزهرا ،
فتصوّرْ منهنَّ مغناجَ خصرٍ تتلوّى على لظى النيران ،
يلفح الوهجُ جَبهةَ من محيّاها ، وثغرًا لم تلقهُ شفتانِ ؛
ويحزُّ اللهيبُ زرقةَ عينيها ، فتُغضي عن عالَمٍ في انهيار ؛
ويغيم الحدّان عن سحر رحبٍ تراءى عرض اللظى والشرار ؛
ويهيج الصدرُ المهدَّمُ أشلاءَ الاماني ملويّةَ الاعناقِ ،
مثلُ دنيا تموت ، مثلُ خيالٍ ينمحي عن معالم الاحداقِ ؛
فالعصور الطَّهورُ يركضنَ إعراضاً عن الكون ضاق بالاثم صدرا ،
ويغيضُ الضياء عمدًا ، ويَبكي الزهرُ ...

يفتاح

بنفاذ صبر ، وقد تصوّر ابنته نفسها على المحرقة بهذا الشكل الذي تصفه هي دون ان تعلم

راحيل ، يا ربيعي الأغرّا ،
يا نشيدَ الاضواء ، يا زُرقةَ الحلم ، فداكِ السنى بسيف أبيكِ ،

وفداكِ النصرُ المهلّل في الدنيا ، ورجعُ الصلاةِ والتبريك ؛
انتِ تذري !

المجنونة

يفتاح !

يفتاح

أمي !

راحيل

باستفهام « فحسرة » بعد ان تنقل طرفها من يفتاح الى المجنونة فتفهم كلّ شيء

ترى ؟ ! . . .

المجنونة

يفتاح ، ردَّ الظلامَ فوق الظلامِ ،
واطوِ من نصرك البرود السنيّاتِ، وزفَّ الدنيا سيوفاً دوامي ،
واملأِ الارض والمعالم شرّاً ، وابعث الريح بين جَهشٍ وجَرحٍ ،
وتحدَّ العُلى ، ولا تغمسِ الكفَّ وتنهدَّ في دمٍ منك سَمحٍ !

تمضي مولولة

راحيل

والدي ، ما شجا فؤادي ، قربَ الموت ، غيرُ النداء : « يا يفتاحُ »
يا منايَ البيضاء ، كيف تموتين ، ويبقى هوى ويبقى صباح ؟ !
اعشقتِ الخريف ، والكون صحوٌ علويٌّ ، والريحُ طيبٌ خفوقُ ،

أم تحبّين نثر عقدك في النور، فيبكي على هواكِ الشروق،
فاذا في الاثير، منكِ جنازاتٌ، وفيه تفجّعٌ وجراحُ!

اغانٍ من الداخل بعيدة:

رجّعي، يا رياح،
نغماتِ الهناء،
وافتحي باب السماء
للعذارى الملاح!

راحيل

العذارى يُنشدن، والأكم الخضراء تزهو بهنَّ، والأدواحُ،
والأماني زرقٌ على قبب «الكرمل»، والكون هازج بالعذارى،
وانا انظر الحياة سوادًا، وجلالَ الحياةِ دمعًا وعارا!
والدي، والدي، حنانك شهرين أناجي، مداهما، آمالي...

يفتاح

الكِ ما شئتِ!

راحيل

مستطردة

واقطفُ عمري زهراتٍ بيضٍ، كوجهِ خيالي!

ستار

زحله، ٩ حزيران ١٩٣٣ – ٤ ايار ١٩٣٤ – ١٥ ك ١ ١٩٣٤